

الأنساق المضمرة في الرواية النسوية الجزائرية
-رواية جسر للبوّح وآخر للحنين للكاتبة زهور ونيسي أنموذجا

Embedded patterns in the Algerian feminist novel : The case of the novel A Bridge for Confession and Another for Longing by the writer Zohour Ounissi.

عايب فاطمة الزهراء*
المركز الجامعي سي الحواس بربكة
طريق امدوكال بربكة - 05001 الجزائر
Fatma.ayeb@cu-barika.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/26

تاريخ الاستلام: 2025/06/30

ملخص:

يهدف المقال تقصي ما تخفيه الرواية جسر للبوّح وآخر للحنين لزهور ونيسي من أنساق مضمرة مبطنة عبر تشكلاتها السردية، إذ تعدّ كنزا أدبيا يتمحور حول جلّ القضايا التي تُعنى بالحياة الواقعية عبر متخيل حركته مجموعة من الشخصيات تحاكي عبر مسارها السردية جملة من الأحداث الهامة المعبرة عن قضايا ثورية 'وطنية' إنسانية 'اجتماعية وقضية الأنا والآخر إذ بنظرة شاملة عند قراءة الرواية نقف عند دلالات متخفية تحتاج مقارنة ثقافية تأويلية لتفجيرها إذ صار المتلقي - شريكا فعالا - ومغامرا يريد فكّ ما تخفيه البنية العميقة للنص الروائي.

الكلمات المفتاحية : زهور ونيسي، رواية جسر للبوّح وآخر للحنين، النقد الثقافي، الأنساق المضمرة،

Abstract:

The article aims to explore what is hidden in the novel *A Bridge for Confession and Another for Longing* by Zohour Ounissi, which is a literary treasure that focuses on most of the issues that concern real life through the imagination of a group of characters that simulate, through their narrative path, a number of important events expressing revolutionary, national, humanitarian, marginal and social issues as well as the issue of the ego and the other, since when reading the novel, we stand at hidden meanings that require a cultural interpretive approach to explode them address as the receiver has become an active partner and an adventurer who wants to decipher what is hidden by the deep structure of the narrative text.

Keywords : Zohour Ounissi' novel' bridge to confession' cultural criticism' implicit patterns.

1 . مقدمة :

لما كانت الكتابة الإبداعية عملا فنيا تتضافر فيه جملة عوامل وغايات أبرزها فلسفة الوعي بالنظر لعلاقة المبدع بالمجتمع وانتهاج رؤية لإعادة صياغته وفق وعي فكري للبناء، فإن فلسفة الكتابة الروائية تجعل من الروائية زهور ونيسي كاتبة ناضجة إبداعيا تحمل عوالم الكتابة عندها أبعادا تسعى لإعادة التشكيل وفق ما يقتضيه العالم من تحولات، فيكون محور الكتابة مشكلات الإنسان وإعادة بلورة الوقائع عبر محطات الماضي والواقع والبناء المستقبلي، وهذا ما تمّ التركيز عليه في الرواية المختارة جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي المبنية وفق عوالم سردية متشابكة ومتضافرة تخاطب وعي الإنسان وترسم للمتلقي مسارا لاستكشاف بواطن الدلالات العميقة. وعليه يمكننا القول إن فلسفة الكتابة الإبداعية المشكلة للرواية تبني عن فلسفة لتشكيل جديد يفيد الواقع ويرسخ جوهر القيم الإنسانية للنهوض بالمجتمع، وبالتالي تعدّ الرواية الجديدة الهادفة رسالة مبطنة ومكتنزة بالدلالات بوصفها (تجعل من الوعي، ومن الممارسة الإنسانية - الإنسان الفرد - التي تولده وتغنيه باستمرار واقعا حقيقيا - يمد جذوره في الفاعلية الماضية والواقع -الراهن - ويعكسهما، ولكنّه باستمرار يتخطى - بل يجب أن يتخطى - المعطى - الجاهز وبا

ستمرار يضيف على الواقع)¹ ولأن الخبر شاهدا على لحظات نقل السرد وفق المتخيل وبناء العالم الروائي، فقد أرخت الرواية المختارة مسارات متقاطعة تسترجع أحداثا ماضية يستذكرها البطل فتتداخل جملة الأحداث وتتقاطع مع شخصيات الرواية، وبين حاضر تعايشه الأحداث منتظرة من المتلقي استشراف المستقبل وهو يحاول فكّ الشفرات المتواجدة في عالم النص الروائي، ويعيد بذلك بناء رؤى من غاياتها تشكيل الوعي لقراءة الرسائل المشفرة، فكان للكتابة النسوية بذلك حضورها الفاعل وغاياتها النبيلة فقلم الكاتبة سلاحها في الذود عن أفكارها فأصبحت الكتابة بالتالي (بالنسبة للمرأة المتنفّس الفعلي لهمومها ومعاناتها واهتماماتها، وبهذا احتلت الرواية الصدارة الأولى وأصبح لها حضورا أقوى مما كانت عليه في أزمنة سابقة بعدما دخل العنصر النسوي في المجال السردى وأثبت حضوره الفعلي بوصفه ذاتا فاعلة في الخطاب الروائي وليس مجرد موضوعا منظورا إليه)².

وعليه كانت رواية جسر للبوح وآخر للحنين محطة للوقوف واستكشاف الدلالات المكتنزة باعتبار (المتخيل السردى مهما كان نوعه يختلف عن باقي الخطابات الأخرى في نقله للحقيقة والواقع، فالمبدع يتجاوز فيه حدود المنطق ليدخل في نسق اللامنطق)³، وانطلاقا من ذلك صارت الرواية محط الأنظار والتوجه لجنس يعبر بمصادقية عن الواقع بقلب فني يحركه المخيال ما جعل المتلقي شريكا لمعرفة الرسائل المبطنة في المتن الروائي، فالتأويل مسارا فعلا يتخذ المتلقي للبحث عما وراء السطور لذا غُدّ (التأويل هو الملمح الأساسي للتطبيق السيميائي له سلسلة من الاستجابات التي يثيرها النص، ويمسك بزمامها المتلقي)⁴ فيصير التأويل آلية إجرائية فعالة في التطبيق السيميائي، بوصفه سلسلة من الاستجابات تنطلق من إشارة النص بوصفه محرضا، فالمتلقي المغامر هو القادر على خوض غمار النص الأدبي .

وانطلاقاً من ذلك يحيلنا هذا لمفهوم النص عند ايكو إذ يراه (بناء مغلقاً أو باباً موصداً له مفتاح واحد يفك رتاجه، بل أصبح عالماً مليئاً بالأسرار والطبقات التأويلية، يدعو القارئ كي يفتق أنسجته المعقدة ويرتق تصدعاته وتفككاته، وكي يبقى ايكو وفيما لمنزعه السيميائي شحن القارئ بمفهوم الموسوعة والنص بمفهوم الانفتاح ... حيث يسهم القارئ في فتح النص/ الرسالة انطلاقاً من خلفياته الموسوعية وتسهم الرسالة/ النص في تعديل وتطوير وتغيير وتوجيه هذا النسق الثقافي عن طريق نظام معقد من الشفرات)⁵ يصير النص خزاناً دلالياً يفتح على منافذ تغذيها خلفيات موسوعية من المعارف قادرة على خوض تجربة فكّ الشفرات المعقدة التي يراهن القارئ المنتج والحاذق على فكها، فالنص الأدبي رسالة مليئة بالأسرار تحتاج تأويلاً مؤسساً من طرف قارئ يعرف من أين وإلى أين ينتهي مشكلاً حلقة من التأويلات يختار منها ما يناسب النص.

تبقى مهمة المتلقي دوماً فكّ شفرات النص الأدبي وسبر أغواره لأنّ القراءات متعددة، ولا يمكن القول بنهاية القراءات، وهذا يعود بنا لما أقره امبرتو ايكو بإعلانه (إنّ الأغبياء أيّ الخاسرين، هم الذين ينهون السيورة قائلين: لقد فهمنا إنّ القارئ الحقيقي هو الذي يفهم إنّ سر النص يكمن في عدمه)⁶ يتبين لنا أنّ القارئ الذكي يحاول دوماً البحث عن الخفي من الدلالات، وعليه فالتأويل يعدّ رسماً لمعالم القبض على المعنى المتواري، والذي يحتاج الغوص في نصّ أدبي تشكّله لغة جمالية وعليه (كان التأويل باستمرار هو تجربة جمالية يقوم بها القارئ عبر وسيط اللغة، فإنه لا مناص من أن يخرج النص وهو عالم تشكّله اللغة من داخله إجراءات تكون بمثابة شروط تنظيمية لعملية التأويل)⁷، ولما كان المتلقي شريكاً فعالاً في العملية الإبداعية يغامر في تقصي الدلالات فإنه عليه أن يتخذ مساراً ليكون مغامراً لخدمة غرضه، وهذا ما أعلن عنه ميشال شارل بقوله (لكي نرسي أسس قراءة ما، علينا البحث بسداجة عن القراءة الجيدة وعدم إعطاء قيمة لها لا يمكن بثه بشكل منهجي، بل يتعين أن نتفحص الأماكن حتى يسمح النص بالحيدان، والأماكن التي يلزمنا فيها بقراءة معينة وأن نخللها ونصفها، وأن نتأمل في القراءات التي يقترحها وتلك التي يرفضها أو تلك التي يتوخى تركها مبهمة أو غامضة وأن نقيس حينئذ هذا الإجماع أو ذاك الغموض)⁸ فمهمة المتلقي البحث عن منافذ تمكّنه من التعامل مع النص الأدبي ما يجعله يشكل عالمه الخاص الذي سيدرك كيفية التعمق فيه.

ولما كان التوصل للدلالات المرجوة يحتاج عناء وحنكة استلزم حسن الصبر والمغامرة باعتبار صعوبة التعمق في البنيات العميقة إذ يعدّ النص (أرض مجهولة وعلى من يريد اكتشافها أن يصبر نفسه على تحمل وعناء السفر في مجاهلها في رحلة البحث عن المعنى الذي يستعصى على التحديد ويظل قابلاً للتأجيل)⁹ وعليه فالمغامرة تحتاج قدرة لخوض غمار النص الأدبي وانتهاج المسارات المؤدية لقراءة ما وراء النص في ثنائية تحقق اللذة في مخاتلة أغواره الدفينة، ومتى استعصى المعنى راوغ المتلقي باحثاً عن مكنوناته المستعصية فكأنما العاشق (المتلقي) لا يستغنى عن معشوقه (النص) حتى يخوض قراءاته تاركاً الباب موارب لقراءات أخرى.

ولأن مسار الرواية الجزائرية في تطورها شاعدا على القفزة النوعية للكتابة النسوية التي صنعت فرادتها أمام زخم التحديات التي وضعت فيها كان اختيار رواية جسرا للروح وآخر للحنين للكاتبة زهور ونيسي مقصودا لاكتنازه بالدلالات التي تحتاج مسارا تأويليا لفك شفرتها، فالنص الروائي غني بالدلالات المتوارية التي تريد الكاتبة بوعيها ونضجها في الكتابة الروائية إيصالها للمتلقي، فاستدكار حقبة الثورة الجزائرية بأحداثها المتتابعة لشخص الرواية ومعالجة قضايا جد هامة تدخل في قضايا الوطنية والهامش والمركز بتتابع فئات من المجتمع كالمرأة وعلاقتها بالرجل في محطات إيجابية وأخرى سلبية وإسقاط البعد الإصلاحي لبعض الأسر كأسرة البطل محور الرواية ، وربط الماضي بالوضع الراهن في مساره السرد عبر القفز وفق مسارات السردية بين الماضي والحاضر، وترك باب التساؤلات لاستشراف المستقبل يعدّ نقاط هامة مع التركيز على نظرة الأنا والآخر كل من زاويته شكّل حساسية للسرد لرسم معالم اضطرابات الذات الإنسانية في إطلاق الأحكام .وانطلاقا من خصوصية الرواية التي شكل فيها الخبر نبضا لبعث روح النضال عبر قلم نسوي كان المنهج الأنسب في التحليل هو النقد الثقافي بوصفه منفتحا على مجال العديد من المناهج التي استعنا منها التأويل والسيماية فحسب ما أقره عبد القادر الرباعي فهو يمتلك الميزة الأنسب لخوض غمار الحفر عميقا إذ إنه (يعتمد أنساق النص، ويعتمد عبر القراءة الجادة إلى كشفها وجعلها قيما ثقافية)¹⁰.

ولما كان النقد الثقافي بمثابة آلة الضخ لتفجر الدلالات عبر حلقات متعددة من الانفتاح فقد كان النسق الحلقة الأقوى لاستكشاف المضمرة لإضاءة النصوص وخروجها من عتمة الغموض، فكان التسليح بجميع الخبرات شحنا للوقود لذلك يعد مفهوم النسق من المفاهيم الأساسية التي يتركز عليها النقد الثقافي إذ يهتم هذا النقد بالوظيفة النسقية في النصوص الخطابية، ويستقصي اللاوعي النصي وهذا ما يخوله للتأويل¹¹ ولما كان للنقد الثقافي استعانه بعدد الحقول المعرفية والمناهج لانفتاحه الموسوعي كان الأجدر بنا تتبع إجراءاته في قراءة الرواية المختارة المكتنزة دلاليا والتي لا يمكننا تتبع كل قضاياها لذلك كان الانتقاء الأنسب لمحاولين بذلك التركيز على أهمها ، وبين التداخل والتشاكل للقضايا تبرز غايات الرواية النسوية في كون الإنسان محور الكتابة ، فالذات في تناقضاتها ومسارها تسترجع وتعايش وتستشرف وفق خبراتها الإنسانية ، وهذا ما سنحاول الوقوف عنده في الجانب التطبيقي للرواية .بانتهاج النقد الثقافي باعتباره استجلاء لأنساق النص "المضمرة التي تأبى الانصياع والمكاشفة أمام القراءة الجمالية"¹² ، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الاستعانة بمجموعة من المناهج والنظريات النقدية المعاصرة، كالتأويلية والتفكيكية والسيماية والبنوية وغيره .

2 - المقاربة النقدية: الأنساق المضمرة في الرواية النسوية الجزائرية -رواية جسر للبوح وآخر للحنين للكاتبة زهور ونيسي أنموذجا.

1.2- مضمون الرواية:

تسرد الكاتبة عبر متخيل الرواية أحداثا ماضية استذكرية للبطل كمال عطار الذي يمثل بطل الرواية الرئيسي عبر استرجاع ذكريات الثورة التحريرية المجيدة، فبعد غربة البطل بأربعين سنة بعيدا عن ولايته قسنطينة يعود قافلا مسترجعا أحداثا وشخصا ماضية بتفاصيلها، وعبر الاستذكار تؤدي الشخصيات مهام تحريك الأحداث، وبالتالي يرسم من خلالها قضايا الوطنية والأمة والهامش والمركز وأزمة المثقف وصراع الأنا والآخر والقيم الإنسانية المشككة للأحداث، وقد كان للمدينة حيزا واسعا بوصفها المكان الذي عاش فيه البطل والشخصيات واقعهما الماضي والراهن، وعبر رسائل مبطنة تحتاج الاستكشاف تحاور الكاتبة وعي المتلقي لرسم مسار الوعي لفهم القضايا وأبعادها من خلال حلقة استذكار الماضي و تصوير الواقع واستشراف المستقبل .

2.2- مسار العنونة وغواية سحر التلقي :

يمثل العنوان العتبة الأولى لقراءة المتن الروائي بوصفه المحرض الذي يلج به المتلقي فك شفرات النص المستعصية، ولا يمكن اختياره اعتباطيا وإنما هناك مقصدية للاختيار بوصفه (نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة)¹³ ولما كان للعنوان فنية الإغراء والجذب كان سلاح المتلقي فك رمزيته لخوض قراءة المتن النصي، فعنوان جسر للبوح وآخر للحنين للكاتبة زهور ونيسي يضعنا على محك التساؤلات أيّ جسر هذا الذي كان مخصصا للبوح ؟ وأيّ بوح هذا الذي تعلّق بالمكان، متى نبوح للمكان عن مكوناتنا الدفينة ؟ أيّ ذاكرة هذه المسترجعة أهي علائق الماضي والراهن المتشابكة ؟ أيّ نفس هذه المحملة بالبوح أهي المغترية أم المتعلقة بالمكان ؟ ما الحدود الفاصلة للبوح ومتى نقرره ؟ وهل في البوح اعترافات متكتمة ؟ أيّ جسر هذا هل هو جسر معلق لمدينة تعرف بالجسور أم هو جسر الحياة في تشكلاتها وتناقضاتها ؟ وفي المقابل هناك جسر آخر هو للحنين فمتى يبلغ الحنين أوجه أفي البعد أم هناك في التواجد أيضا اغتراب ؟ متى يكون للحنين أبعاده في رسم القرارات وتشكل خبرة الحياة ؟ أيّ تمزق هذا لهذه الذات الرواية حتى جعلت العنوان يحيلنا لمفترق الطرقات بين جسر قرر البوح ونحن نعرف أصعب ما يكون حينما نقرر البوح عن ذواتنا المثقلة بالتناقضات والمشاعر وتشكيل الرؤى وإصدار الأحكام، وبين جسر آخر يشكل معبرا للحنين يحيلنا للماضي يتقاطع مع راهن تعايشه الذات، ولا يمكن العودة لماضي الحنين ونحن نعيش الحاضر ولا نربطه باستشراف المستقبل، إنه العنوان المضغوط بتشكلاته المتبلورة في تقاطع الأزمنة الثلاث في مراحل ذات تتمزق بين جسر قد نعتبره جسر حياة أيضا، فحياتنا جسور ومحطات للعبور تحفرها الذكريات ليكون جسر

البوح عن المكونات يقابله حنين الذكريات فهل يمكننا العيش في الحاضر الراهن واستشراف مستقبلنا دون جزء الماضي المشكل لذواتنا والذي حفر عميقا في ذاكرتنا التاريخية؟.

لعل ما يلفت انتباهنا هو مدينة الجسور المعلقة قسنطينة لكن ما يجعلنا نفك اللثام أكثر في غوصنا عميقا في العنوان إدراكنا تواجد ذات ندرك تمزقاتها، وهي العائدة من مكان آخر لتقف بين متاهات الذاكرة الماضية التي امتلأت بالأحداث والقضايا، فشكّلت خزاناً دلاليا للحفر عميقا في ماضي يحمل سمات وأحداث لتشكله، وبين جسر آخر يحن للعودة فمن لا ماضي له لا تاريخ له، وعليه كان لافتة هامة تحيلنا لمتاهات سردية سنخوضها عبر معالجة القضايا التي تناولتها الكاتبة زهور ونيسي والتي سنقف عند بعضها لاكتناز النص الروائي بالدلالات .

3- مسار تشكل الذاكرة الوطنية (نسق النضال الثوري والاعتزاز بحب الوطن) :

شكّلت الذاكرة الوطنية المحملة بعذابات وبشاعة المستعمر ونضال الشعب الجزائري خزاناً دلاليا لرسم معالم البطولة والفخر بالنضال الثوري والاعتزاز بالوطن، وكان بطل الرواية كمال العطار المناضل الثوري بؤرة تشكيل مسار السرد باسترجاعه لشخص روائية كان لها الأثر الفعال في تشكيل الذاكرة الوطنية التي تستحق الإشادة والفخر ونأخذ على سبيل المثال شخصية مراد ابن العم حسين الحلواجي جار عائلة كمال قديماً، فهو الصديق المقرب الواعي والمدرّك لأبعاد القضية الوطنية، فإدراكه مدى حرمان شعب الأرض لحقوقهم أمام رفاة المغيصب العدو ينم عن روح وطنية تدرك بشاعة الآخر واضطهاده، ومن بين المقاطع السردية في الرواية نجد (كان مراد شاباً غير عادياً وقد دخل الجميع في عالم جديد، ثورة ونضال وفداء واستشهاد في عز الشباب، وقضية تجدد نفسها مع كل جيل، قضية تحرير الوطن، وإخراج المحتل من الأرض، وقد كبس على أنفاسها مدة قرن وربع قرن، لم يحاول فيها أن يستفيد من خيارات هذه الأرض فحسب، ولكنه هدف إلى تغيير الإنسان فيها، بل إبادة، واستبدال إنسان بإنسان وحضارة بحضارة)¹⁴ فمراد صديق كمال العطار أدرك قيمة حقوقه في وطنه المغيصب فأراد تحويل مساره للنضال ضد الآخر اليهودي، فمسار الكفاح يتطلب شجاعة وصبر ووعي بفداحة المفارقة المعاشة واقعياً بين غاصب يتمتع بالخيرات، وصاحب الأرض يعاني الاضطهاد ولأن طريق النضال محفوفاً بالأشواق فإن فداء الثورة كان الدم المملّح بالعز والكرامة وهذا ما أدركه الشباب الجزائري ومن بينهم مراد وصديقه كمال .

وفي مقطع سردي آخر من الرواية نجد ما يدلّ على سرية مراد وتكتمه في انضمامه لصفوف الثورة في القول (.... إلى أن تأخذه وصاحبه كمال عاصفة الثورة مع الآخرين، وكأنها غيث سيظهر كل شيء الجماد والحيوان والإنسان، يروي أرضاً صحراء ونفساً أكثر تصحراً، فيقبل عليها وكأنه وجد ضالته المكونة في وعيه البعيد، فيقوم بنشاط القليل منه فقط ، هو الذي يعلم به صديقه كمال، أما الكثير فهو من حقه وحده ، لا يطلع عليه أحداً، ليس فقط لأنه مجبر على الكتمان، بل لأن الكتمان والصمت من طبيعته الملتصقة بنفسه وعقله ولسانه)¹⁵ ولما للثورة من قوانين تحتاج التعاون والسرية والعمل من أجل تحقيق المبتغى وهزيمة المستعمر فإن طابع

شخصية المناضل من أجل وطنه تتطلب طابع التكتّم، وهذا ما يؤمّن له المقطع السردى ، فرغم اشتراك كمال العطار في النضال مع صديقه وصداقتهما إلا أن هناك من المهام النضالية التي كان يقوم بها مراد دون معرفة صديق دربه، وفي ذلك تبدّى علامات الصرامة والتحدى والحفاظ على خصوصية المهام المؤكدة ما يجعل مسار النضال تصنعه رجال تمتلك قوّة الإرادة والحفاظ على مبادئها.

ولأن الرواية تحكي حاضر كمال العطار بطل الرواية الذي يسترجع ذكرياته الماضية ورحلة كفاحه مع صديقه نجده يحن إليه، وقد صار في عداد الأموات بعد أن دفع حياته فداء لحرية الوطن، فيقول في إحدى المقاطع السردية (لطالما سكنني صديقي مراد، وكما يحلو لي عندما أفكر أنني أيضا سكنته ، معه تنهار حدود نفسي و اليوم وهو في عداد الأموات ممن يسمون أحياء لا يمكن أن يموتوا رغم أنهم ميتون، أجدني متأرجحا بين الوهم والواقع، وأنا أفقد روحه الجميلة، ومروءته، وابتسامته...) ¹⁶ فالمقطع السردى يصوّر مرارة الفراق فالصديقان روح واحدة، فكأنما فقد نزع جزءا من روح كمال بموت صديقه المقرب لكن ما يصبره إدراكه خلود حياة الشهداء وعدم موتهم وتمتعهم في جنات الخلود لتبقى صفات الصديق الحنون راسخة في ذهنه من روح جميلة طيبة توافقه للحرية ومروءته وابتسامته .

3.1- صورة مريم الفتاة المناضلة : (نسق كسر نمطية المرأة المستضعفة):

تعدّ المرأة مناضلة فذة خاضت كفاحها بجانب الرجل حاملة أعباء ومشقة ضرورة النضال الوطنى دفاعا عن الوطن، وفي الرواية تصوير لمشاركة الفتيات في مستقبل العمر إذ يمتزج شعور الحب في بداياته مع ضرورة الكفاح جاء في الرواية (خجل وهو يرى رفيقته مريم ، تخفي تحت تنورتها سلاحها بتواضع وعزة نفس، وحملاوي رفيقه الجديد يشيعها بنظرة اختلط فيها الإعجاب والحب والخوف عليها كل مرة وهي تنهيا كل مرة للقيام بعملية فدائية) ¹⁷ فصورة مريم الفتاة الخجولة ، وهي تعلن قرار السير قدما في النضال دفاعا عن الوطن وخوضها لنضال دون خوف ولا هوادة وانتصار حبّ الوطن على حب الشباب إذ نظرات الحب في توديع الحبيبة وهي تراهن على المشاركة في مهام الثورة مخاطرة بحياتها حز في نفس البطل وجعله يدرك حجم المسؤولية في تحرير الوطن من كل فئات المجتمع فكأنما مسار النضال مسارا حتميا دافعه الحب الأبدي للوطن فلا عيش دون كرامة وعزة نفس .

كانت هذه بعض المقاطع السردية المختارة من الرواية قمنا فيها بالانتقاء وهي تدل على ماضي الثورة وذكراياتها المسترجعة من طرف البطل، وهو يسردها بتفاصيلها لتتكرر له صورة النضال الثوري لكن في زمن آخر بعد الاستقلال وعودته من ديار الغربة، فتتشكل له صورة أخرى راهنة تذكره بالماضي والحاضر معا، وهذا ما سنتناولها من خلال التقاء البطل المجاهدة زليخا .

3.2- صورة المجاهدة زليخا (نسق البطولة وتحولات النضال):

لقد عاش البطل كمال تمزقات الغربة، وهو يتذكر ماضيه مع مستعمر غاصب محروما من حريته ليواصل نضاله السياسي بعد الاستقلال ثم يكون الاغتراب عن الوطن والعودة بعد أربعين سنة ليكون المكان شاهدا والذكريات محتشدة متقاطعة بين زمن ماض وحاضر ونظرة ضبابية لاستشراف المستقبل، وهذا ما كان محل تساؤلات عديدة لبطل الرواية، وهو يسافر بنا بين محطات الماضي مستذكرا النضال الثوري وتشعباته وملامسا لحياة بعض فئات المجتمع وسط التناقضات الحاصلة لتكون عودة البطل بعد الغياب مرحلة فاصلة، والتغيرات السياسية والتحزب والأوضاع المتأزمة في البلاد بعد خروج المستعمر وقطع أشواط من الإصلاحات والتنمية تجعل المناضل السياسي كمال يعاود غربته ويفكر في مصير بلاده ، وما شخصية الجارة الجديدة زليخا إلا عودة لاستدكار جديد متشعب، فهي البطلة التي دفعت زهرة شبابها ثمنا للكفاح من أجل الوطن كما أنها الأرملة الوحيدة بعد استشهاد الزوج لكن ثمرة الحب في إنجاب ولدها الوحيد تشكل عقدة زليخا ، فبعد أن كبر صار مصيره مجهولا نتيجة لامبالاته ورفقة سوء الذين رسموا له طريق الفساد، فما كان من الأم المجاهدة سوى الألم والمعاناة، فما عاشته ماضيا كان حرية مكبلة انتزعتها بالنضال مع زوجها فكان ثمه فقدان السند، وفي المقابل عاشت تربي وتكافح من أجل ابنها الذي عاشت معه غربة أخرى في ظل وضع سياسي متأزم وانسياقه في جماعة همها نزع المصالح ومبررها الغاية تبرر الوسيلة .

وبين رحلة النضال الدامية عايشت زليخة مرارة المصير الضبابي حاملة هم الابن الضال والوطن الذي ضجت فيه بكل ما تمتلك، وفي ذكرياتها يستذكر كمال نضاله ويعايش لحظات الاغتراب الجديد في الوطن الغالي، ولأن زليخا تمثل المرأة المناضلة لفذة فبروية جاراها كمال تسترجع مرحلة النضال، ففي المقطع السردى من الرواية تستذكر ماضيها فتقول للجار كمال (.... إنني اسكن الشقة رقم ثمانية منذ الاستقلال، سلمت لي من طرف مسؤول الثورة، الذي كنت أعمل معه بولايتنا التاريخية الثانية وزوجي مجاهد مثلي، لكنه توفي متأثرا بجراحه التي تورمت بين زنانات السجون من سجن (الكدية) بقسنطينة إلى سجن (لامبيز) بالأوراس ، فلم يعيش من الاستقلال إلا بعض شهور (...)¹⁸ فتعريف الجارة زليخة بنفسها يطبعه الألم فالسكن المتحصل بعد فرحة الاستقلال الرامز للاستقرار تعيش فيه بعد تحقيق حلم الإسلام وحيدة بعد فقدان الزوج ، فما عانه من ظلم المستعمر حصده روحه بعد أشهر من الاستقلال فالجوار بين بطل الرواية في المسكن بعد رحلة الاغتراب يجمع بينهما بعد مشوار سنين من الاستقلال ليكتشفا أنهما سارا في درب واحد من النضال بعد تبادلهما لأطراف الحديث .

ولأن الرواية متشابكة الأحداث ومكتنزة الدلالات ففيها الكثير من الشخصيات الثانوية المتقاطعة في دائرة النضال الوطني لكن اخترنا منها هذه الشخصية لإظهار أن كل فئات المجتمع ناضلت دون استثناء في سبيل تحرير الوطن ، فمسار النضال حتى بعد الاستقلال بقي هاجسا دليلا على حب الوطن والرغبة في البناء والتعمير وهذا

تجلى في اعترافات كمال بطل الرواية في كثير من المقاطع السردية التي لا يسعنا ذكرها. ولأن الرواية تزدهم بتقاطع الأحداث، فتتسارع وتيرة الزمن فيها وتتقاطع مشكّلة فسيفساء سردية لتعدد المسارات المكتنزة دلاليًا واخترتنا بعض المسارات الهامة للوقوف على تأويلات دلالتها.

4- مسار صراع الأنا والآخر (نسق الارتباط بالقومية العربية وخطورة مدّ جسر التواصل مع الآخر اليهودي) :

شكّلت بعض الشخصيات في الرواية بؤرة التحوّلات في مسار السرد وعبر ذاكرة البطل كمال عشنا الأزمات النفسية والتقلبات وهو يحاول تأسيس رؤى للإقناع، لقد حاولت هذه الشخصيات رسم معالم لتبني قضايا جدّ حساسة تتعلق بالقضية الفلسطينية، وتبني أفكار الإصلاح لجمعية العلماء المسلمين وبين حب عاطفي جارف للبطل كمال مع حبشية يهودية يعيش التأزم النفسي وتبني بعض المقاطع السردية حول المونولوج الداخلي ذلك الجانب الخفي المتوحد بمكونات الذات وتناقضاتها فالذات كيان تسيّره جملة من الآراء إذ تمثل (التعبير عن حقيقة من تكون وذلك في إطار علاقة سليمة تربط بين كينونة الذات وبين الجسد والعقل)¹⁹ ولما كان حبّ البطل صادقاً، فمسار السرد كان يشكل جملة ردود الأفعال المحيطة بهذه القصة فأمره عتيقة ترفض فكرة الزواج باليهودية كصراع أبدي أمام هذه الطائفة وأبوه يمثل محور بؤرة التوتر فلطالما زوّد ابنه بنصائح التمسك بالقومية الوطنية، والدفاع عن القضية الفلسطينية وبين ذاك وذاك عاش البطل الحصار بين الدفاع عن أحقية اختياره للشريك فلا سلطة على القلب وفكرة الرفض المتشعبة في الأوساط المجتمعية الجزائرية، فالصراع بين اليهودي والعربي معروفا منذ القدم فهم الشعب التائه الظالم المستبد .

وأمام ذلك عاش البطل أيضاً زعزعة لقراراته فلطالما قارن بين حبه وبين حب هذه اليهودية (راشيل) ورسم طريقاً شائكاً بين العقل والقلب فبينما كان يفكر بجدية العلاقة كان يلاحظ حبها الآني وتمسكها بالمبادئ التي ترعرت عليها ، ليكون قرار العقل فاصلاً لزوجاه من أخت صديقه الشابة (نفيسة) التي اخترها الوالد فكان الزواج بسيطاً ، وهذا ما دلّت عليه بعض المقاطع السردية (..... هاهي نفيسة تنام جنبه كمالك ، سعادتها تبدو حتى وهي نائمة ولما لا تكون السعيدة؟ إنّها كانت طوال الوقت تحبّه ...)²⁰ وبين تمزق بين قلب سكنه حب اليهودية انتصر العقل وصادر قراره، وكثير من المقاطع السردية امتدّت على صفحات الرواية تبين ذلك التأزم المعاش للبطل فزوجاه كان وفق العقل وانقياد لأوامر الوالد المتشعب بالفكر الإصلاحي، وهاهي بعض المقاطع السردية تصوّر ردّة فعل أمه بعد علمها بحب ابنها الوحيد لليهودية تقول (..... يهودية يا كمال، ما الذي أصاب الدنيا، ولماذا تختارني هذه المصيبة دون الأمهات جميعاً ؟ (..)) (...) نصرانية ولا يهودية، إنّ اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبينا وديننا منذ الأزل، وإلى أبد الآبدين، ما الذي تريد أن تفعله بوالدك يا كمال أبوك وطني مكافح من أجل حرية الجزائر وفلسطين)²¹ فكأنما الخبر كان صاعقة للأم

وهي تعلم العداء بين العرب واليهود وبشاعة ما اقترفوه في مسارهم، فهو العدو الذي عُرف بالمكر والخيانة و الغدر وها هي تحاور ابنها وتذكره بالأصل اليهودي فتذكر الوالدة فداحة ما ارتكبه الابن فيه تدمر وشكوى فالديانة اليهودية لا تتوافق وتعاليم ديننا فهم قوم لعنهم الله، كما تنبه الأم لمصير الوالد إن علم بالخبر فهو ذلك الرجل الصالح المدافع عن القومية العربية والقضية الفلسطينية المتشعب بالفكر الباديصي الإصلاحى إذ نجد في بعض المقاطع السردية في الرواية تمجيد الأب للغة العربية كمقوم من مقومات القومية العربية ذلك مثل (كان أبو كمال وهو صغير عندما يعثر في الشارع على ورقة مكتوبة بالحرف العربي ، يسمح عنها الغبار ويضعها في جيبه، وعندما يرجع للبيت ينادي كمال بلهجة جادة ، ليجلس الابن قبالة والده ، الذي يخرج الورقة المطوية ، وكأنها المصحف الشريف ، ثم يطلب منه أن يقرأها بنظرة آمرة : اقرأ يا كمال ما في هذه الورقة، لعلها آية كريمة أو حديث نبوي ويقرأها كمال وهو يستعير جدية واهتمام والده ، ثم يطمئنه أنها فقط فاتورة بقائمة أسماء بعض البقول ويضحك الوالد في سره : إن ابنه لا يدري أنه يحسن القراءة ويفهم جيدا ما في الورقة ، فقط يريد بحركته أن يشرك ابنه الصغير في الاهتمام بالحرف وتمجيد اللغة العربية ، والتي حاربها المختل مثلما حارب كل ناطق بها)²² فتشعب الأب بالروح الوطنية والقومية والفكر الإصلاحى جعله يدرك أهمية غرس ذلك في ابنه الوحيد كمال منذ صغره ما جعله يتذكر دوما ذلك ، وعندما اشتد عوده وصار شابا وتأججت عواطفه الجارفة حبا في راشيل اليهودية بقي صراع الخوف يؤنب ضميره ، وهو يعلم مدى خطورة ذلك لدى العائلة والأحباب وإن لم نقل عند كل عربي صاحب نخوة يترفع عن الخوض في الفكر المسالم مع اليهودي، فيقول مبينا ذلك في إحدى المقاطع السردية غدر اليهودي وإن كان يبدو مسلما متعايشا مع الآخر (ويبقى الشيخ ريمون حبيبا إلى قلوب أهل المدينة ، إلى أن يختار معسكر العدو ضد جيرانه وأحبابه في المدينة، ليقتل هو بعد ذلك بيد مراد أحد رفاق كمال، كما يقتل كل خائن للوطن ، حتى ولو كان عربيا مسلما ، لتنتقم له بسرعة الإدارة الاستعمارية بخطف واغتيال مجموعة من المناضلين من بينهم الكاتب الكبير أحمد رضا حوحو . هكذا هم اليهود، الخيانة من طبائعهم)²³ يومئ المقطع السردى عن معاناة بطل الرواية وهو يبرر حبه لراشيل اليهودية وتناقض ما يعايشه واقعا ، فريمون يمثل ذلك اليهودي الذي تم استكشاف حقيقته بانضمامه مع اليهود ضد إخوانه وأحبابه في المدينة ليكون غدره وخيانتة ثمنها القتل على يد مراد ولتنتقم له الإدارة الفرنسية بعد ذلك بقتل الكثير من المناضلين سواء الذين قرروا النضال بالسلاح أو بالحبر كالكاتب رضا حوحو فالجميع مصيرهم كان الاستشهاد فرحلة الصراع مشتدة دوما مع الآخر، وبين واقع شاهد وقلب عاشق تتمزق الذات المحبة لينتصر صوت الضمير والعقل، فالصراع أبدي بين العرب واليهود غدته وتيرة السرد الروائي بتعقيدات يعايشها البطل وهو يحاول الدفاع عنه حبه، وبين الكثير ممن شاركه ضرورة الرفض لهذا الحب المستحيل نجد مقطعا سرديا لشخصية ثانوية وهي خال البطل كمال الذي ينبهه لطبيعة اليهود بقوله (إنهم استولوا على أرضنا المقدسة وهي أرض العرب ، وهجروا أهلها وطردوهم، ونحن عندما نخبهم نكون قد خنا أخوانا العرب ،

إنهم أعداء البشرية كلها بداء من صلبهم للسيد المسيح عليه السلام .إننا لا نكرهم هكذا فهم الذين سبقونا بالكره والحقد والعداء، أبغضوا نبينا، وقللوا من شأن ديننا، إنهم قوم أصابهم الغرور يحسبون أنفسهم فعلا، خير أمة أخرجت للناس، إن ذلك خطأ تاريخي كبير. وهنا عندنا في المدينة والوطن كله أخلفوا عهودهم عنا، وخانونا وتواطأوا ضدنا مع المستعمر، رغم رعايتنا وحمائتنا لهم عبر القرون²⁴. فالصراع العربي الإسرائيلي متجذر نتيجة الطغيان والاستيلاء على الأرض المقدسة كما أنهم عُرف بالخيانة والغدر وهم يستوطنون أراضي الغير ، فلا عهد لهم ولا ميثاق ،وبالتالي فتاريخهم أسود وصومعتهم لا تقبل بالتصالح نتيجة قلوبهم الحاقدة وكل هذه الآراء كانت تحز في نفس كمال العاشق، فتجعله يعيش دوامة الحب المستحيل، فيكون القلب مستسلما والعقل والضمير يقظا ، فكأنما كل التفاصيل بينه وبين الحبيبة تمرّ معبر التمهيص العقلي فرغم انجراف الحب الصادق إلا أن ردود العشيقه راشيل تجعله يدرك حبّها الآني دون رسم لمستقبل يجمعهما ويتجلّى ذلك في المقطع السردى الآتي (... لقد كانت إجابة صاحبتة راشيل بالنفي القاطع، إنها لا تريد أن تفارق أهلها ، والحدث في رأيها لا قيمة له، حتى تفعل من أجله ذلك، إنها إجابة أخرى أضافها كمال لإجابات صاحبتة حبيبته والتي تشكّل له كل مرة حقيقة مرة ، لا يجرؤ على البوح بها حتى لنفسه ، إنها إذن لا تحبه بنفس القدر الذي يحبها هو ، إن حبها له نوع من التسلية واللهو والإعجاب ، يمكن أن ينتقل يوما إلى شخص آخر ، لو وجدت الفرصة الأكثر ملائمة ومصلحة ، وأصابه رعب كبير من الفكرة²⁵. كانت راشيل حبا أولا لكمال سحره جمالها لطفها دلالتها وفي عنفوان الشباب دافع عن هذا الحب الذي تناسى فيه أنها يهودية ، وحاول الدفاع عن هذه العلاقة بصفاء قلبه ورغباته التي كانت تؤمن بها حبيبة وزوجة مستقبلية لكن جدرا فاصلا منع هذا الحب فتعثرات كثيرة تتبعته من كل المحيطين به ليتفاجأ فيما بعد من خلال بعض المواقف بتمسكها بأصولها اليهودية وحبها الآني له لقد كان شعوره صادقا بعد يقين عدم محبتها له كما أحبها إنه صوت العقل الفاصل لأن الحقيقة المؤكدة أن الصراع العربي اليهودي يمكن وصفه بالجدار العازل الذي لا يمكن فيه أن يلتقيان ، ولذلك كان انتصار العقل والضمير وبقيت الذكريات تستحضر بوصفها حلقة ماضية انتهت كلياً حتى لا يكون للعلاقة استشرافا مستقبلياً .

لقد كانت هذه بعض المقاطع السردية القليلة أمام الكثير من المقاطع التي لم نقف عندها وكانت هذه المحطات التي وقفنا عند تحليلها تمثل النزر القليل لرواية مكتنزة بالدلالات لم تسعنا الدراسة للتعمق فيها، فهي رواية فيها الكثير من الأحداث والشخصيات والمحطات من صور للهامش والمركز وأبعاد سياسية واجتماعية وغيرها تحتاج دراسات أخرى للوقوف عليها .

وختاماً نصل لجملة النتائج التالية :

- 1- قاربنا الرواية المختارة وفق إجراءات النقد الثقافي، فكانت المضمرة تحتاج حنكة وقرسا لمعرفة الدلالات المكتنزة التي حاولنا تقسيم أنساقها وفق ما ترمي إليه من أهداف سامية .
- 2- تجلّت أبعادا ثورية في الكثير من المقاطع السردية ،فالبطل مناضلا ثوريا سعى للاستقلال وبعده كان مناضلا سياسيا سعى لأجل تنمية وطنه، وقد استحضّر جملة من الأحداث الماضية شكلت تحولات لمسارات السرد عبّر من خلالها عن معاناة فئات الشعب ووعيهم بمسار الثورة .
- 3- تقاطعت أزمنة ماضية وحاضرة مع نظرة مستقبلية بعودة البطل بعد أربعين سنة غربة عن وطنه ،فكان لتقاطع الأزمنة بؤرة أحداث كانت في حيز مكاني هو قسنطينة رسمت مسار النضال للمرأة والرجل والوعي بمخططات العدو الفرنسي بالمقابل وصول البلاد بعد الاستقلال بسنوات عدّة لمرحلة تعدد الأحزاب وبداية أزمات البلاد تلوح على الأفق ما رسم مسارا آخر للتساؤلات عن أحوال البلاد ، وهذا ما شكلته معاناة المجاهدة زليخة وهي تفكر في مصير ابنها وانزلاقاته الخطيرة وسط معتزك للحياة بدّت فيها الضبابية .
- 4- الرواية مكتنزة بالشخصيات سواء الرئيسية أو الثانوية مع تشابك للأحداث ومعالجة الكثير من القضايا الإنسانية، الاجتماعية، السياسية، قضية الهامش والمركز وغيره فكان الانتقاء لنزر قليل الأنسب ما يجعلنا نفكر في دراسات أخرى لمعالجة ما تبقى من قضايا.
- 5- كان الفكر الإصلاحي جلي في بعض المقاطع السردية دلالة على تأثير جمعية العلماء المسلمين ما يدلّ على تفتن فئات الشعب للمقاومة بالحبر والدم معا.
- 6- صوّرت الرواية قضايا التمسك بالقومية والهوية العربية وإشكاليات الصراع بين الأنا والآخر وأومأت لخطورة فكرة التعايش مع اليهود بوصفهم لا عهد ولا ميثاق لهم فطباعهم الخيانة والغدر .

- هوامش البحث :

- ¹ - غالي شكري، الأدب والماركسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1979م، ص16
- ² - الأخضر بن السائح : سرد المرأة وفعل الكتابة (دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير، د ط، الجزائر، د ت، ص 13.

- ³ - شادية شقروش : سيروية الدلالة وإنتاج المعنى قراءة سيميائية في الأدب السعودي المعاصر، دار الجامعة ملك سعود، ط1، السعودية، 2016، ص 75.
- ⁴ امبرتو ايكو : التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني، سلسلو أفاق الترجمة، ع16، الهيئة العامة للترجمة، ط1، القاهرة 1996، ص17، 18.
- ⁵ بن بوعزيز : حدود التأويل (قراءة في مشروع امبرتوايكو النقدية)، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م، ص28.
- ⁶ طائع الحدادي : سيميائية التأويل الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006 م، ص 364.
- ⁷ -عبد الغني بارة : الهرمونطقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م، ص 380.
- ⁸ - كاترين كيربرات، أوريكويوني : المضمّر، تر: ريتا خاطر، مراجعة : جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، د ط، بيروت ،لبنان، 2008م، ص 562.
- ⁹ -ينظر بسام قطوس : مدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء، ط1، 2006، ص 204.
- ¹⁰ عبد القادر الرباعي، جماليات النقد الثقافي نحو رؤية الأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي دراسات أحمد جمال المرازيق، المؤسسة العربية للدراسات والنش، ط1، لبنان، 2009، ص17
- ¹¹ ينظر : عبد الرحمان إكيدر : الأنساق الثقافية المضمرة في الأمثال العربية القديم، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع 68، ص11
- ¹² متلف آسيا ،النقد الثقافي بين الغواية وأفق المجازفة في تشكيل خطاب نقدي جديد، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، جامعة تسمسليت، الجزائر، مج 5، ع2، 2021، ص335
- ¹³ - - بسام قطوس : سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، ط1، عمان، الأردن 2001م، ص 57 .
- ¹⁴ زهور ونيسي : رواية جسر للروح وآخر للحنين، مكتبة نوميديا، عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2006م، ص113.
- ¹⁵ الرواية، ص ص 114، 115
- ¹⁶ الرواية، ص 115.
- ¹⁷ الرواية . ص98.
- ¹⁸ الرواية، ص 196.
- ¹⁹ محمد هاشم الماحي: كينونة ذات، دار المصوّرات للنشر والطباعة والتوزيع، الخرطوم، السودان، ط1، 2017م ص 49
- ²⁰ الرواية: 83.
- ²¹ الرواية : ص 35
- ²² الرواية : ص 11
- ²³ الرواية : ص ص 52، 53.
- ²⁴ الرواية، ص 53
- ²⁵ الرواية 47.